



سالم المشهور

# العربية وتحديات الحداثة

لا يخفى على أحد أن اللغة العربية تُعاني من صعوبات كبيرة، وانهزام أمام اللغات الأجنبية الأخرى كالإنجليزية والفرنسية... وغيرهما، ولا أكون مبالغاً إن قلت: إن العربية وصلت إلى درجة من الضعف لم يشهدها التاريخ العربي على مدى أكثر من ألف سنة. وفي مقالة «اللغة والهوية وآفاق التنمية»، تحدث الأستاذ يحيى بن البراء عن هذا الموضوع المهم، وفي استهلال المقال أشار إلى أن اللغة العربية في وضعها الراهن تعاني من الكثير من الصعوبات: فهي في «حالة مقلقة من الضعف والقصور عن الوفاء بمتطلبات العصر واحتياجات متكلميها التصويرية والتعبيرية»، ثم فسّر هذا الضعف بالحال التي تمر بها المجتمعات العربية؛ فالمجتمع العربي يعيش هو الآخر حالة شاذة من تاريخه على مختلف الأصعدة وفي شتى الميادين، ولا شك عندي أن حال المجتمعات العربية مرتبطة ارتباطاً كاملاً بحال الأنظمة العربية التي تعاني من حالة من عدم الاستقرار - وما «الربيع العربي» وإفرازاته عناً بعيداً - وتذبذب في منسوب الحريات ومخاوف متعددة تارة من الإرهاب الذي يحاول أن يلصق نفسه بالدين، وتارة من مطامع خارجية تفرض أجندتها الخاصة على هذه الأنظمة.

## ١- حاجة اللغة العربية للتجديد:

من أجل ذلك تحتاج لغتنا العربية إلى مزيد عناية من أجل تفجير طاقاتها التعبيرية والتواصلية لتواكب حركة المصطلح العلمي، وتصبح أداة في المسيرة التنموية، ولكي نجدد اللغة يجب علينا أن نشجع بروح العصر ونفهم واقعا فهما جيدا، بعيدا عن السذاجة وحسن النوايا. وبعبارة أخرى أوردتها الكاتب: «لابد أن نضبط حياتنا على ساعة العصر حتى نخرج من سلبية المفعول به تاريخيا إلى إيجابية الفاعل»، وهذا يستدعي عدّة أمور: منها: حضورنا في مراكز النفوذ ومواطن الخلق، خلق الأشياء والقيم والفنون والعلوم.

## ٢- نحن والحداثة:

ولكي يتحقق حضورنا في مواطن النفوذ والفاعلية في العالم، لابد أن نصلح مع الحداثة، أن نعيش الحداثة، نفهمها، ندرك عمقها. «فالحداثة أن نستوعب أسباب التقدم في كافة المجالات حتى ننمي مجتمعاتنا تنمية شاملة ونفجر فيها طاقات الخلق المدفونة لنصبح قادرين على الإسهام النشط في صياغة مصير العالم»، هكذا يرى الكاتب الحداثة! فالحداثة عنده لا تتعلق أبدا بالإساءة إلى المقدس الديني أو الصراع مع الأديان.

## ٣- إشكاليات برامج التعريب:

يذهب الكاتب إلى أن برامج التعريب في أغلبها تعثرت ولم تعط ما كان منها متوقعا، بل إن تدريس العربية في البرامج التعليمية هو الآخر يكاد يكون مهملا! وتعليمات وقرارات الجامعات اللغوية لا تؤخذ بعين الاعتبار في التعليم والتداول، وعمليات الاقتراض من اللغات الأخرى تتم بفوضى مطلقة!

## ٤- اللغة شرط من شروط النهضة:

هناك نظريات ودراسات في علم اللغة الاجتماعي تربط بين اللغة القومية والنهضة؛ فالأمم ذات الثقافات المترسّخة لا تستطيع النهوض دون الاعتماد على لغاتها. فكما اتسعت قاعدة استعمال لغة ما وتداولها بين صفوف متكلميها، كانوا أقدر على الفهم والإفهام، وأكثر وعيا، وأسرع إلى الابتكار، ويتأيد هذا الزعم بتجارب بعض الأمم المعاصرة التي طبقت هذا.

## ٥- اللغة والهوية:

يُمكنني القول: اللغة هوية! بحذف واو العطف الذي يُفيد التغاير؛ فاللغة كما يرى الباحث ليست للخطاب والتواصل فحسب، بل هي حالة ذهنية لدى الإنسان يولدها من دماغه، وهي أيضا «السبيل الأول لنقل الفكر والتجربة عند الإنسان»؛ زد على ذلك أنها تعد معيارا للتنمية الاجتماعية والعلمية، ولحما لوحدة الأمة ووقودا لشعلة يقظتها الفكرية، وبصمة لهويتها الحضارية. وبعبارة أخرى: اللغة هي المستودع الأمين الذي يحفظ مقومات الانتماء، ويوجد الهوية الثقافية ويبرز الخصوصية الثقافية، وهي كذلك الوعاء الحاضن لمجزآت الحضارة، بل هي لغة الدين الذي يمثل هوية وانتماء مقدسا عند العرب!

... إن العلاقة بين اللغة والهوية هي من الواضوح بمكان؛ فاللغة المهيمنة هي لغة الدولة المهيمنة، فحينما كانت الدولة العربية الإسلامية قوية شاع اللسان العربي وتقوق على غيره من الألسنة، يقول ابن خلدون: ولما تملك العجم وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية فسد اللسان العربي لذلك، لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة؛ فالهوية اللغوية كانت إحدى وسائل السيطرة على الشعوب وتركيبتها، وأبرز مثال على ذلك تجربة فرنسا في مستعمراتها، يقول الرئيس الفرنسي شارل ديغول: «إن ما حققته اللغة الفرنسية لفرنسا من مطامح لم تستطع جيوش فرنسا عبر



التاريخ أن تحققه..»

## ٦- العربية وعوائق التطوير:

اختصر الباحث العوائق التي تواجه تطوير العربية بالآتي:

- غياب الأمية وميراث فترات الانحطاط.

- غياب مراكز البحث العلمي. وللتأكيد على هذه النقطة يقول الكاتب: «ما يتفق على اللغة العربية في أمريكا يزيد على كل ما يرصد لها جميع العالم العربي»، وما نشر في إسبانيا عام ١٩٩١م يزيد بالنصف على كل ما ينشر في البلاد العربية.

- هناك مَعوقٌ له ارتباط بعالم السياسة؛ حيث انعكس غياب التخطيط والتنسيق في عمليات التعريب إلى ظهور مشاكل متعددة؛ لأن لكل دولة عربية مشروعها الخاص في التعريب وكانت النتيجة ظهور «عربيات مختلفة تنشوش الفكر وتستعصي على التعليم»؛ فعندما تنظر إلى مصطلح مثل (mangment) تجده يعرب في دول أربع بمصطلحات مختلفة؛ ففي تونس بلفظ التصرف، وفي الجزائر يقابل بلفظ التسيير، وفي المغرب يقابل بلفظة التدبير، وفي موريتانيا يقابل بلفظة الإدارة. وهكذا يضيع القارئ بين المصطلحات المتضاربة التي تقيفه وتمنعه. ومن الأمور الخطيرة التي لها علاقة بعالم السياسة: هجرة العقول العربية إلى الخارج بسبب غياب المناخ السياسي والاقتصادي والعلمي المناسب.

- مزاحمة اللغات الأجنبية للغة العربية؛ فاللغات العالمية الكبرى اليوم هي النافذة المتاحة للعرب للانفتاح الحضاري والتشبع بروح العصر، كما أن

مزاحمة اللهجات العربية القطرية للفصحى في الحياة اليومية له أثر بالغ على نمو الفصحى على مستوى الخطاب الشعبي اليومي.

## ٧- اللغة العربية ووسائل التطوير:

استعرض الكاتب في مقاله مجموعة من الآليات التي يمكن من خلالها تطوير اللغة العربية وجعلها لغة تفي باحتياجات العصر، وسنختار من بين آليات ووسائل التطوير نقطة واحدة لمناقشتها؛ وهي: الصرامة في وضع المصطلح واتساق الترجمة.

ومن السلم به اليوم في الأوساط العلمية أن العلم لا يتقدم دون جهاز مصطلحي دقيق ومُنضبط، وتعد الحصيلة المصطلحية العربية كبيرة من حيث الكم، ولكنها هزيلة من حيث الاستعمال؛ بسبب وجود عدة صعوبات تواجه مشاريع الترجمة العربية؛ ومن تلك الصعوبات: تباين الاستخدامات المجازية بتباين اللغات، فلا يُمكن أن نترجم التعبيرات المجازية في لغة بشكل حر؛ ذلك أن أغلب هذا النوع من التعبيرات يعكس خبرة مجتمعية وثقافية معينة.

وقد وُقِّع الكاتب في الحلول التي اقترحها، والتي استعرضت حلا واحدا لعرضه؛ وهو: الصرامة في وضع المصطلح واتساق الترجمة؛ لكون حركة الترجمة الصحيحة هي الطريق الأمثل لجعل العربية لغة علم حية، وهذا سيتيح للطالب العربي دراسة العلوم المختلفة بلغته، ولنا في حركة الترجمة العربية في العصر العباسي خير مثال على أن الترجمة تنعش الحركة العلمية وتحقق الكثير من المكاسب لأمتنا.